المـــــذهب الرمزى

أهو نزعة سليمة فى التفكير ؟

للأستاذ عبد العزيز عزت

يَعْزُو المذهب الرمزى اسمَه الفرنسى Symbolisme إلى موريأس فى نشرة طبعها عام ١٨٨٦[1] وفى أحد أعداد جريدة هذا المذهب عند أوائل ظهورها، واسمها «الرامز» Symbobste — بطبيعة الحال — يجد القارئ مكتوباً فيها — بحبر ! ! — ماترجمته : «الشىء الموجود ما هو إلا مظهر ، مظهر خدّاع ، لأنه يكفى أن تتغير حالتى النفسية حتى يتغير وجوده » — هكذا ! — ويقول العلامة مارتينو مدير جامعة بواتييه فى كتابه وعنوانه « المذهب البرنامى والرمزى » ما نصه : « إننا نجد عند فرلين ، وعند ملارميه ، وعند رامبو وكثير من الرمزيين ، أن الشىء الواقع ومثوله ، حاضراً كان أم ماضياً ، لا قيمة له مطلقاً »

ولكن إذا كان المذهب الرمزى يبلغ من العجز أن يتعامى وينكر وجود الأشياء الواقعة ، ويجعلها إضافية إلى عوارض النفس وانفعالاتها ، فماذا يستعيض بها يا ترى ؟ ؟ يجيب مدير الجامعة السابق فى نفس الكتاب صفحة ١٤٠ بقوله : « إن عباقرة هذا المذهب يحلون هواجس النفس وشؤم التصور وإبهام الطلاسم وضعف الإقدام ، فى مكان الرأى الواضح »

وعليه ؛ فالمذهب الرمزى فى الأدب وفى غير الأدب من فن ودين ، هو نوع من النمز واللمز فى التفكير ، لا يستقيم له عود ولا تمتد له ظلال . ذلك لأنه مبدأ بنى على الالتواء والغموض الفكرى ، تنعدم فيه الصراحة ، ويفسد فيه الوضوح ، ويختل فيه ثبات الآراء بالمعنى الأفلاطونى . ولما كانت الصراحة والوضوح هما أساسى الحقائق الفكرية الثابتة التى بدونهما لا يستقيم للعقل منطق ، ولا للشعور انسجام ، كما يؤكد هذا ديكارت فى كتابه المنون « مقال عن المنهج » فى إحدى قواعده الأربع العقلية ؛ ولما كانت الحقيقة والفضيلة متكافئتين متعادلتين فى فلسفة ديكارت ، فقد أضحى هذا المذهب يتناقض وأول أصول العلم الحديث ، ويتعارض وبديهيات مبادئ الأخلاق ، هذا من الوجهة النفسية

والرأى صحيح إذا نظرنا إلى المسألة من وجهة تطور التفكير الانسانى ، على صفحة الزمان ، وتسلسل المعارف البشرية وتعاقب الملكات النفسية التى عملت على خلق التراث البشرى فى التاريخ . هذا التطور يؤكد لنا منطقاً لا يحيد مجراه ، فلا تختل له حقبة من الزمن ولا « ينفك له تماسك فى دورته ، قد عبر عنه أبو التفكير الانسانى الحاضر القائم فى العلوم والآداب (أوجست كنت) فى كتبه المتعددة ، وخاصة فى كتابيه « الفلسفة الوضعية » و « التفكير الوضعى » (وهو يلخص كل فلسفته) ، فهو يثبت أن الانسانية تطورت فى ثلاث حالات : الحالة الأولى وتسمى حالة «التصوف» أو « الدين » ، والحالة الثانية « التجريد العقلى » التى تتمثل فى الحضارة اليونانية القديمة وعلى الخصوص فى فلسفة أرسطو العظيم ، والحالة الثالثة تسمى بالحالة «الوضعية» التى تحتل حالة العلم فى زماننا هذا أى عهد التجربة الذى يقوم على ملاحظة مظاهر الطبيعة ومظاهر النفس لتحديد «علاقاتها» وصوغها فى قوانين خاصة ، أو لا تؤدى حتما إلى قوانين عامة بها ، ولكن للانسان أن يستغلها عملياً ويتنبأ بما سيؤدى إليه نشاطها فى المستقبل القريب والبعيد [1]

والذى يهمنا من هذه الحالات الثلاث ، هى الحالة الأولى لما بينها وبين المذهب الرمزى من التشابه. فأوجست كونت يعرفها قائلاً : «إنها تمثل مظاهر الوجود ، كاحساسات تتخيلها. فهى بهذا الاعتبار فى مقدور تصورنا ، تتوقف على إدراكنا لها بالبصيرة » : أى إن الأشياء على اختلافها لا قيمة لوجودها الذاتى ، ولكن بالنسبة إلى حالة النفس وأهوائها فى مناسباتها المختلفة . ويقول إنها حالة نفسية تسود عند الزنوج والقبائل المتوحشة لعجزهم عن فهم المظاهر الخارجية ، ولقصر أفهامهم عن إدراك المعانى النفسية المجردة ؛ لهذا يستعيضون عن ذلك برموز يقدسونها لمدلولاتها ، وبحركات وطقوس يرددونها فى مناسبات معينة ، ظناً منهم أنها تفى بما يرتسم لها من عقيدة فى أذهانهم ، وبعناصر الطبيعة يفرضون عليها

(١) اقرأ مكسيم نرمون فى كتابه « الرمزيون » صفحة ٢٢

(١) اقرأ أيضاً مقدمة « علم الطب التجريبى » لكلود برنار)

الحياة ، ثم يؤلهونها باعتبارها قطب الاتصال الروحانى بنفوسهم الحائرة !

كذلك المذهب الرمزي يمثل نوعاً من الدخول إلى النفس والتغلغل فيهـا ، ونوعاً من الحرية الجامحة فى إمكان التصوير والتعبير لمظاهرها التى لا تستقر على قرار . لهذا كان « الرامز » لا يخرج إلى الناس فى وضوح العقل وانسجام المنطق ، فهو أضعف من أن يرتفع إلى هذا المستوى الانسانى وكان لا يتبادل الخير وفضل المعاملة الفكرية مع بنى الانسان فى المجتمعات البشرية ؛ وكان لغموض إحساساته الانسانية وتضارب نزعاته لا يقبل على تفهم أمر الوجود العالى ماديا كان أم تاريخياً وإنما كان يمثل حالة نفسية هى أقرب إلى المرض منها إلى شيء آخر ، يسودها محض الخيال والوهم والأنانية الفردية بعينها ، لأن العالم فى كل نواحيه وفى كل مدلولاته الصحيحة ، وكذلك التراث الانســانى الذى اتفق على استقامته العلمـاء والحكماء منذ العهود الأولى يصبح باطلا ؛ ويجب أن تبتدئ الخليقة دورتها من جديد ، وأن تتخذ فى ذلك من « هواجس » هـذا الرامز أسسهـا الأولى . وليس بعد ذلك من دليل على الخروج على إجماع السلف والخلف وقلب الحقائق والوجود فى كل شيء ؛ فالتاريخ يُكذب ، والمنطق يحتضر ، والاجماع ينكر ... وإنهـا لنزعة تذهب بالانسانية إلى عهد تهيم فيه على وجهها فى الأرض ، فلا تخرج عن حد الفطرة والعراء !

وثالثاً — فان الرأى صحيح كذلك من الوجهة الاجتماعية، لأن العلم فى نظر أبى الاجتماع الحديث (دركيم) هو التعاون المشترك بين العلماء . ونشوء المدارس الفكرية ، التى تبغى إقامة قوانين ثابتة لمظاهر الوجود فى كل شيء ترتكز على نظريات يدعمها البحث والاستقصاء . وهو أيضاً إشراك النـاس فى مفهوم الحقائق المكتشفة ، ورفع الغموض والالتباس عن أفهامهم ليقروا في إجماع الحقائق واضحة. فالعلم إذاً مظهر من مظاهر الاجتماع البشرى مهمته خلق التماسك الفكرى في عقلية الفرد عن طريق الوضوح، وخلق نفس هـذا التماسك فى عقلية الأفراد عن طريق ثبات الآراء والنظريات ، لأنه كلما رفع الجهل والغموض والابهام عن عقول النـاس زاد « الوفاق » فيما بينهم ، لاتحادهم فى نفس وجهات النظر والتفكير

وأكبر دليل على صحة ما نقول هو أنه عندما ساد مذهب السوفسطائية فى المجتمع اليونانى القديم الذى يرتكز على مبدأ « الشك » ومرض «الحيرة» الفكرية ، لأنهم كانوا يبشرون بنظريات يصح أن يلقنوا الشبيبة نقيضها فى الغد ، فالعلم فى نظرهم هو علم « الفرد » وعلم « المناسبات » ، وعلم الفصاحة والثرثرة والرغاء ، لهذا ساد الفهم « النسبى » للحقائق فى ذلك الزمان ، وأدى المنطق الفاسد إلى سوء الأخلاق لعجزهم عن تصور علم واحد ذى منهج واحد يوجد بين الناس ويوجه أفكارهم إلى الغايات المتحدة فى الفهم، فلزم للقضاء على السوفسطائية قيام ثلاث ثورات لتنظيف المجتمع اليونانى من أدران أفكارهم : الأولى ثورة سقراط فى الأخلاق ، والثانية ثورة أفلاطون فى الطبيعة ، والثالثة ثورة أرسطو فى المنطق . والمذهب الرمزى كالسفسطة يتعدم فيه الفهم الاجتماعى ، لأنه يرجع الحقائق إلى محض « الفرد » أى هواجس نفس الرامز وتصوراته الملتوية وغموض إحساساته التى تخرج عن أساليب المنطق ، وتتناقض وعرف المجتمعات البشرية . لهذا كان هو مذهباً أنانياً أشد خطراً من الشيوعية بل ومن الفوضوية ؛ لأن هذه المذاهب على ما بها من قبح دنيء تبغى في النهاية نوعاً من الخير للمجموع فى نظامها الخاص المبتور

ويؤيدنا فى رأينا هذا مدير جامعة بواتييه السابق الذكر ، فى كتابه صفحة ١٤٢ إذ يقول : « المذهب الرمزى مذهب ثورى يركن إليه الشبان باسم التجديد لهدم النظام السياسى والاجتماعى والعقلى والفنى الذى قد ورثوه عن سلفهم الصالح فى بلادهم . ولهذا يجب أن يتخذ القائمون بالأمر فيهـا الحذر من مثل هذه النزعات الطائشة والصرخات الجامحة ، التى تبغى قلب نظم المجتمعات الهادئة التى تساير التطور العام لدورة النشاط المتزن فى سائر أمم العالم »

« ويقول هذا العلامة كذلك فى صفحات ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ من نفس الكتاب : إنه بالرغم من قيام مبادئ الحرية التامة فى التعبير عن الآراء فى بلد كفرنسا ، وبالرغم من أن هذا البلد يعيش خاضعاً لمبادئ الثورة الفرنسية التى يدين بها نظام الحكم الجمهورى فيها ، فإن المذهب الرمزى عند ما ابتدأ ظهوره

وأخذت « أبواقه » ترتب الدعاية والنشر له ، قامت قائمة الناس في فرنسا وسموه « النزعة الجنونية » لما يتضمنه من القضاء على الروح الاجتماعية والتضامن بين أهل البلد الواحد . ولهذا أجمعت الناس في فرنسا على جوحه وشره الفتاك ، وقاوموه بكل ما عندهم من قوة ، وأمكنهم — كما يذكر العلامة المدير — أن يقضوا عليه في عشرة أو خمسة عشر عاماً من ولادته ، ودفنوه « غير مأسوف عليه »

وأقول بعد ذلك : إن مذهب « الرمزية » من أصول الكثلكة (1) . فهي تذهب إلى نوع من التصوف يغمض كثيراً على عقول تابعيها . لهذا تمهد لتقريبه إلى أفهامهم إلى رموز خارجية محسوسة ، كل منها له معنى بعيد يكفل لهم نوعاً من الترجيح في التصور . وهي في هذا تسير على الخصوص مع تعاليم القديس أوغسطين الذي كان يعتقد أن ليس هناك دين صحيح أو باطل ، إلا وله ولتابعيه اتفاق محدود على رموز معينة لها مدلولات خاصة تنحصر فيها أفهامهم . وهذا ما دعا بعض الناس الى اتهام الكاثوليكية بالوثنية ، وعلى الخصوص عند ما صرح رؤساؤها بأن المذهب الغالب في تعاليم الكنيسة هو مذهب القديس توماس ؛ لأن هذا الحبر الكبير كان يخضع في تعاليمه إلى فلسفة أرسطو . والكل يعرف أن هذه فلسفة أرسطو هي فلسفة الصنم ، لأن أساسها كأساس سائر الفلسفات القديمة . وكذلك فلسفة ديكارت في العهد الحديث هي علم الأهليات ، وهذا العلم تنحصر ابحاثه في تحديد طبيعة العناصر الأولية التي بها يجب أن يتحقق الشكل الكامل في الهيولا المادية فيبدو تاماً كحقيقة وكفرض . وصحة قولنا هذا تؤيده نظرية تقسيم العلوم في هذه الفلسفات ، وما كتبه على الخصوص العلامة المشهور رافينسون وهاملان عن أرسطو .

عبد العزيز عزت
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

(1) إقرأ كتاب القسيس جيرودوت وعنوانه « شرح المذهب الكاثوليكي » طبعة « بلون » صفحات ٣٢٨ ، ٣٨٢ ، ٣٢٠ . وأيضاً « قاموس الرمز » لقساوسة البندكتين للقديس لويس

من برجنا العاجي

ينبغي أن نحترم أولئك الذين يحترمون الفكر . رأيت هذا الأسبوع واحداً من هؤلاء : هو طبيب فاضل ، طلبني في منزلي بالتليفون مرات ، ثم زارني في مكتبي مرتين دون أن يظفر بلقائي . ولم ييأس ، فحضر الثالثة فوجدني ، وأخبرني أنه يحتفظ بكل كتبي إلا كتاباً واحداً ، بحث عنه كثيراً فلم يجده . وهو يدفع فيه الآن أبهظ ثمن حتى لا تنقص مجموعته المجلدة أنفر تجليد . فلم يؤثر في نفسي أيضاً هذا الكلام ، وأحلته في اختصار إلى مكتبة باعته النسخة بضعف ثمنها . وإذا بخطاب شكر واعتراف بالجميل يصل الى من هذا الرجل في اليوم التالي . شكر على ماذا ؟ لست أدري . ولكني تأملت قليلا فخجلت . إن هذا الرجل يحترم الفكر في ذاته وينفق في سبيله الجهد والمال . إن هذا الرجل يشكرني وقد دفع ثمن النسخة بينما أراني قد أهديت كتبي تورطا أو حمقا الى أناس لم يمنوا حتى بإرسال بطاقة شكر . وتذكرت أولئك الذين لا يفعلون شيئاً إلا أن ينتظروا أن نهدي اليهم كتبنا ليقرأوها متفضلين ، أولا يقرأوها مهملين . مثل هؤلاء ينبغي أن نحتقرهم مهما كانت مكانتهم . إن الفكر ما ارتفع قدره يوما إلا على أيدي رجال من طراز ذلك الطبيب الفاضل . وما صغر شأنه إلا على أيدي هذه المخلوقات التي تبذل مالها في كل شيء إلا في كتاب !

ولقد سرت عدوى هذا « التسول » الأدبي إلى الهيئات العلمية والثقافية . فقد جاءني كذلك هذا الأسبوع خطاب من دار الكتب الحكومية تطلب نسخاً من كتابي الجديد هدية أو « صدقة » ! وقد علمت أن الدار لها « مال » مخصص لاقتناء الكتب . ولكن ماذا نقول في زمن هانت فيه قيمة الفكر حتى بين الهيئات العلمية الرسمية ؟ إلا فليعلم الناس منذ اليوم أني سأبطل عادة « الهدايا » اهداء من كتابي القادم ، وأني لن أقدم جهدي إلا لقرائي المخلصين الذين يقدمون إليّ جهدهم وعنايتهم ومالهم . أما الآخرون فلن أعترف لهم بوجود . وإني منذ اليوم لن أحترم إلا من يحترم فكري ويسعى إليه ويبذل فيه ما يستطيع

توفيق الحكيم